

الفلسفة العملية الايطالية غرامشي نموذجاً

د. أحمد عطار¹

توطئة:

يتألف تاريخ الماركسية من جيلين أساسيين شكلا البناء العام للفكر الماركسي، الأول مثله ماركس طبعاً، والجيل الثاني شكلته نخبة من المفكرين الشباب كان أبرزهم المنظر الايطالي "انطونيو غرامشي"، مفكر السياسة والبنية الفوقية والايديولوجيا، وبالفعل "لقد قالوا عن غرامشي انه المفكر الماركسي الأكثر أصالة وإبداعاً بعد لينين.. نحن نعرف أن المفكر ماركس كان مفكر التاريخ (المادية التاريخية والاقتصاد، رأس المال، نقد الاقتصاد السياسي) ونعرف أيضاً أن لينين هو مفكر الثورة وتقنياتها (الحزب الطليعي وعلاقته مع الأحزاب الأخرى والجماهير).. فما هي المساهمة الخاصة لغرامشي في التفكير والنقد الماركسي؟"²

01- حياته:

ولد الفيلسوف الماركسي "أنطونيو غرامشي" يوم 22 جانفي، عام 1891، في بلدة "آليس" (Ales) وهي بلدة زراعية صغيرة بجزيرة "ساردينيا" (Sardaigne)³ الإيطالية من عائلة برجوازية صغيرة وكان فيها الأخ الرابع لسبعة أخوات، تميزت "ساردينيا" عن المناطق الجنوبية في إيطاليا بتخلفها الشديد والفقر وارتفاع كبير لمعدلات الجريمة أما اقتصادياً فكانت ما تزال منطقة رعوية زراعية.

عاش غرامشي طفولة قاسية وفق ما ذكره في مراسلاته زاد في صعوبتها إصابته بإعاقة جسدية بسبب حادث سقوطه من مربيته لدرجة اعتقاد أمه باستحالة بل نجاته و أعدت العدة لموته لكنه خرج من هذه المحنة بإعاقة مستديمة في ظهره كان لها الأثر البالغ على نفسيته، وزاد على ذلك تدهور الحالة المادية للعائلة مما اضطره وهو في الحادي عشر ربيعاً للعمل في المكتب العقاري الذي يشتغل فيه أبوه بدوام يفوق التسع ساعات يومياً، وبأجر بخس مما فوت عليه فرصة الدراسة الجيدة أمام قسوة الظروف الاجتماعية التي أبعدته عن طفولة سعيدة ورغدة وعن الدراسة الجيدة وهو الذي كان متفوقاً فيها بالرغم من معاناته من مشكلة ثنائية اللغة (اللغة الإيطالية والسردينية) مثل كل "السردنيين".

¹ أستاذ بجامعة أبو بكر بلقايد تلمسان. الجزائر

² ميشال سيمون، افهم الايديولوجيا، دار الوقائع الاجتماعية، باريس، 1987، ص 100 نقلاً: عن عمار بلحسن، الأدب والايديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب المكتبة الشعبية، الجزائر، 1984، ص 16.

³ Pochothèque, Encyclopédie de la philosophie, Garzanti, 2002, p 659.

بعد سنتين من الانقطاع عن الدراسة يعود إليها غرامشي بشغف كبير وفي سنة 1910 سيبتعد أكثر عن منزلهم وبالتحديد إلى ثانوية "جيوفاني ماريا ديتوري" "بكاليري" عاصمة ولاية "سردينيا" أين سيعمل بعد ساعات الدراسة ليكفي نفسه ومع ذلك فلم تتحسن أحواله المادية لدرجة انه أصيب بنقص التغذية، بل كان أحيانا يغمى عليه من شدة الجوع.

بين سنوات 1910-1912 بدا يتصاعد الاهتمام السياسي عند غرامشي وزاد تعاطفه مع الأفكار الاشتراكية والتي كانت له معها روابط منذ الطفولة واشتدت كراهيته للطبقة السياسية المستبدة وحملها كل آلام الأمة الإيطالية وحتى تخلف مسقط رأسه "سردينيا" وتزامن هذا الحس السياسي مع تنامي شغفه باللغات وبالتحديد فقه اللغة (الفيلولوجيا) وهو الذي اختار دراسة اللغة الإغريقية متمنيا أن يكون أديبا.

بعد سبتمبر 1911 تخرج غرامشي من ثانوية "كالياري" وانتقل إلى كلية الآداب بجامعة "تورينو" Turin وفي هذه الفترة كانت إيطاليا تعيش أزمة حقيقية بإضافة إلى الحرب الليبية (1911-1912) لاحت في الأفق أزمة ثقافية و سياسية وحتى داخل الحزب الاشتراكي كان هناك صراع خفي بين الثوريين والمعتدلين.

استفاد غرامشي من منحة مدرسية كانت تقدمها جامعة "تورينو" للطلبة المعوزين لكن بشرط حصولهم على معدلات عالية وهو الشيء الذي وفق فيه لحدا بعيد لدرجة أن أساتذته تنبؤ له بمستقبل زاهر في مجال اللسانيات لكن مقابل هذا النجاح المعرفي قابله تدهور صحي ولقد لاحظ أستاذه في الفلسفة "آنيالي ياستوري" انه يتبع "بيند يكتو كروتشي" وهيجل أكثر من "كارل ماركس" ويهتم كثيرا بالتقريب بين النظرية والممارسة، وبالفعل فبداية من سنة 1912-1913 بدا يحاول تطبيق أفكاره عمليا عندما انظم إلى اتحاد الشباب الاشتراكيين، ورغم كل هذه التجارب فغرامشي لم يكن بعد اشتراكين بما تحتويه الكلمة من معنى ولعل المنعرج الذي سيجعله كذلك هو الانتخابات النيابية التي جرت⁴ في أكتوبر 1913 بينما كان غرامشي في سردينيا ينتظر افتتاح السنة الدراسية فلقد تأثر كثيرا بمنظر الفلاحين وهم يشاركون لأول مرة في الحياة السياسية، مما أشعل فيه الحماسة ودفعه إلى العمل السياسي، أولا بتثقيف العمال وتلقينهم الأفكار الاشتراكية وهي المهمة التي كانت موكلة إليه في اتحاد الشباب الاشتراكيين، وهي مهمة سيعتبرها فيما بعد احد مهام الطليعة المثقفة التي بها يمكن تسريع حركة التاريخ.

في بداية سنة 1914 حملت الساحة السياسية في إيطاليا جدلا حادا حول مشاركة إيطاليا في الحرب العالمية الأولى التي كان يدعمها "بنيتو موسوليني" في جريدته "البولو ديطاليا" "شعب إيطاليا"، في حين عارضها غرامشي بعد تردد ففي البداية كان يساند الحرب معتقدا أن هذه الحرب كفيلة بإسقاط النظام البرجوازي، ترافقت في إيطاليا النقاشات حول الحرب مع حملة تجنيد واسعة استثنى فيها غرامشي بسبب وضعه الصحي، حينها كرس نفسه كليا للنقد المسرحي والعمل الصحفي الذي كان مصدر رزقه، فالمقالات التي نشرها كانت توحى بنضج وخصوصية أصبحت تطبع فكر غرامشي، الذي كان يحوم حول ضرورة تنمية الوعي الطبقي "البروليتاريا" بمقابل نضالاتهم السياسية.

في نهاية سنة 1914 سعى غرامشي لتوثيق العلاقات السياسية بين الحركة العمالية في شمال إيطاليا وحركات الفلاحين في جنوبها تحديدا بجزيرته "سردينيا" كتأسيس لما أسماه تحالف "الكتلة التاريخية"، وكنوع من زيادة

الوعي لسكان الجنوب وتثقيف البروليتاريا، ومع ذلك فلم تكن إيطاليا دولة صناعية مثل قريناتها في أوروبا، فرغم وجود مدن صناعية كبرى في الشمال (مصانع المعادن) وشركات كبيرة مثل "فيات Fiat" وتباعدا طبقيًا بين العمال والطبقة الرأسمالية إلا أنها لم تضاهي على الأقل فرنسا مثلاً، بل حتى العمال لم يكن لهم تضامن أو وعي طبقي علماً أن أغلبهم كان نازحاً من الريف لدرجة أنهم كانوا يشتغلون في الفلاحة بعد خروجهم من أعمالهم ولو بدوام جزئي.⁵

ومع ذلك فإن الحركة العمالية في إيطاليا كانت تنضج شيئاً فشيئاً، وبأقي هذا النضج على حسب غرامشي من خلال الجدلية الحاصلة بين البروليتاريا وطلبتها المثقفة التي تقوم بتحرير وعيها، ذلك أن غرامشي راهن كثيراً على الإرادة العمالية واعتبر التاريخ صناعة إنسانية لا يمكن إرجاعها إلى "الحتمية الميكانيكية" وهو بذلك يوجه نقداً مبطناً كذلك إلى الاشتراكيين الذين اعتقدوا باستحالة قيام الاشتراكية في إيطاليا ما دام لم ينضج النظام الرأسمالي، بل أكد غرامشي في مقالا له سنة 1916 بجريدة "أفنتي"، *Avanti!* (جريدة الحزب الاشتراكي) قدرة تحقق الاشتراكية في إيطاليا حتى قبل الدول الصناعية كالمجترات وألمانيا بواسطة قوة الإرادة.

نقد غرامشي للجناحين المعروفين في الحزب الاشتراكي (الإصلاحيين والراديكاليين) أثر عمله "المدينة المستقبلية" 1917 أين ينتقد عند "الإصلاحيين الاشتراكيين" فكرة الحتمية التاريخية الميكانيكية العمياء التي يجدها خاصة عند "كلاوديو تريفيز" في قوانين التاريخ متأثراً بالوضعية العلمية، واستناداً إلى غرامشي فإن التخطيط والتعليم الثوري إضافة إلى الإرادة الإبداعية في التاريخ تجعل الإنسان يسطر أهدافه، بمعنى أن الإنسان هو محرك التاريخ، ولنلمس في هذه الفكرة تأثر بأعمال الفلسفة المثالية والفيلسوف "كروتشي".

لقد كان لإحداث الثورة الروسية في فبراير 1917 الأثر البالغ على إيطاليا و"تورينو" رغم ما تبع الثورة من فوضوية إلا أن غرامشي كان يثق في قدرة القائد البلشفي "لينين" على إنجاح الثورة وقيادة روسيا إلى بر الأمان، وفي هذه الأثناء سرى في إيطاليا تفاؤل غامر بالثورة الروسية والمجرية وتدمير شديد من الحرب التي كلفت نصف مليون قتيل وأزيد من مليون جريح وعجزاً كبير في الميزانية، ولقد كان النقص الفادح في الخبز يوم 21 أوت 1917 فاتحة الانتفاضة عفوية كبيرة عمت الطبقة العمالية لكن هذا الانتفاضة لم يكتب لها النجاح بسبب سوء التنظيم والتخطيط وانعدام قيادة توجهها إضافة إلى الشراسة والقسوة الزائدة التي قمع بها الجنود النظاميون العمال.

وفي خضم هذا الجو المشحون والحزين وصلت بعد مدة أخبار هزيمة إيطاليا في معركة "كابوريتو" في أكتوبر 1917 التي كانت ضربة قاسمة للدولة والمجتمع الإيطالي وفي الشهر الموالي عقد الحزب الاشتراكي "بفلورنس" مؤتمر للإعداد للثورة شعر فيه غرامشي وهو ابن السادسة والعشرين بحماس زائد رغم أنه لم يكن عضواً مؤثراً في التجمع، وتم الخروج بضرورة التجهيز للثورة الاشتراكية كون الظروف موالية والدولة منهكة، لكن الكثير من الإصلاحيين داخل الحزب الاشتراكيين كانوا مشككين في نجاحها بحكم عدم اكتمال المرحلة الرأسمالية التي ستعقبها الاشتراكية وهو تصوراً جبري للماركسية.

شق غرامشي قراءته الخاصة لماركس فلم تكن تشبه ماركسية الاشتراكيين في حزبه فهو لم يرى ماركس نبياً يحرم نقده أو يستحيل التفكير من بعده، بل بالعكس لقد أعجب غرامشي بالاجتهادات التي سعت لتطوير

الماركسية مثل ما هو الحال مع "لينين" وقراءته الخاصة للوضع الروسي وسعى لفعل نفس الشيء بالنسبة لاييطاليا فظهرت مقالاته في صحيفة "الغريدو ديل بوبولو" تحلل وتفكر في الحدث الروسي ونظرية "لينين" أين استنتج منها انه هناك مستويين: المستوى الإنساني والمستوى الاقتصادي، الأول يرتبط بمفاهيم: الوعي والإرادة، والثاني بمقولات: وسائل الإنتاج والقيمة، وكما أن الثورة الاشتراكية لها أسس اقتصادية فهي كذلك تستدعي مقتضيات إنسانية والتي لا تقل أهمية عن الأولى ومنه فليس بالضرورة أن ننتظر تطور واكتمال كل مرحلة من المراحل الاقتصادية التي قل بها "ماركس" لنصل إلى الاشتراكية، فإن أمريكا أكثر تطورا وتصنيعا من إنجلترا وإنجلترا أكثر تطورا وتصنيعا من روسيا ومع ذلك حدثت الثورة في روسيا الزراعية بواسطة الفلاحين وليس العمال، لأن الإنسان وليس العامل الاقتصادي هو المركز الفاعل في التاريخ، ومنه قسم غرامشي الماركسية إلى ثلاث أقسام هي:

01- مستوى الاقتصاد السياسي (القيمة)

02- فلسفة البراكسيس (إرادة الإنسان وواقعه): تشكل همزة الوصل بين المستويين 1- و 2

03- العلم السياسة والأخلاق (الدولة)

سنة 1918 حاز غرامشي على سمعة واسعة في ايطاليا عبر مقالاته الشهيرة خاصة تلك التي وقف فيها مع الظاهرة الروسية يحللها وينتقدها ويصف إبداعية "لينين" في قيادتها ثم دعواته المتكررة لإقامة مجالس العمال الثورية في ايطاليا كما انتقد غرامشي في مقالاته التنظيمات العمالية واستبداد أقلية نافذة في مسار النقابات وبقاء الأغلبية الساحقة من العمال خاضعين بشكل سلبي دون أي نوع من الديمقراطية والتشاور في قضايا العمل النقابي، وهكذا لاحظ غرامشي أن "اللجان الداخلية" المقامة في "تورينو" لم تكن تحض بأي تسيير ديمقراطي ولم تجعل من سيطرة البروليتاريا على الإنتاج هدفها المستقبلي.

وضع غرامشي مشروعا طموحا لتنظيم "اللجان الداخلية" وتحويلها إلى ما يسمى "سوفييتات" بمعنى هيئة سياسية عمالية تشاورية ترتفع باللجان الداخلية من كونها مجموعات نقابية فقط إلى "مجالس مصانع" فعالة، تمهد وتسهل الثورة، فتحتذي بنظيراتها في روسيا، لكن هذه الدعوة قوبلت باعتراض داخل الحزب وحتى منع الترويج لها في الصحيفة التي بدا يكتب فيها: "النظام الجديد" (« Nouvel Ordre ») (l'Ordine Nuovo) مما أخر ظهورها حتى صدور العدد السابع أين تحمس الكثيرون للفكرة وبدأت تنتشر في مصانع "تورينو" وبعد هذا النجاح نبه غرامشي الحزب الاشتراكي بضرورة التفكير في المستقبل ورسم ملامح الدولة الاشتراكية الجديدة، وما كان بالإمكان إحداث هذه النقطة بمثل هذه "اللجان الداخلية"، فظهر للعيان الحاجة لجعل المصانع أمكنة وقواعد تحضيرية تنظيمية بل برلمانات للعمل السياسي الثوري فهي نواة تجمع البروليتاريا وعليه يجب أن تتحول إلى حاضنة للتربية وتنقيف كل العمل بدون استثناء.

لقد استشراف غرامشي مستقبل الطبقة العاملة وأرادها أن تحضر نفسها للحظة الملكية الجماعية وهي مازالت داخل المصانع الرأسمالية، فعمل هو وصديقه "تولياتي" على التمييز بين مستويين:

* اللجان الداخلية: هي هيئة نقابية تدافع عن أجور ومصالح العمال المنضوين تحت نقابة العمال عرفت في مصانع التعدين "بتورينو" تم الاعتراف بها رسميا من طرف الحكومة الايطالية سنة 1919 وتتكون من خمسة عشر عضوا يختارون من طرف "اتحاد الموظفين في مصانع التعدين" وكثيرا ما يكونون من الحزب الاشتراكي وكان يعاب على اللجان الداخلية أنها لا تنتخب ديمقراطيا ولا تمثل كل توجهات العمال.

أولاً- مجالس المصانع: أو "السوفييات" قاعدة تمثيلية تحتوي كل العمال الذين يتم تثقيفهم وتنظيمهم، وهي اقرب ما تكون برلمان للبروليتاريا.

ثانياً- الحزب: مؤسسة خاصة بالنخبة الواعية.

لن يصبح الحزب هو الفاعل الوحيد للعملية الثورية، ولا يمكن للحزب فرض قراراته على المجالس وهو الشيء الذي سبب فشل الثورة في ألمانيا على حسب غرامشي فعندما فرض الحزب أعضائه على العمال تشتت الهمم، "وأخيراً فإن نظرة غرامشي إلى العلاقة بين الحزب والمجالس كانت ممثلة تماماً للنظرية الماركسية إلى العلاقة بين السياسة والاقتصاد: لا يمكن لأي شكل من أشكال السياسة أن يفهم ويبرر تاريخياً إلا كهيكل حقوقي للسلطة السياسية الفعلية وإذا كان للحزب الاشتراكي أن يتسبب في الثورة بإيطاليا فإنه يجب تأمين القاعدة الاقتصادية للدولة الاشتراكية"⁶.

إضافة إلى عدم الاهتمام الذي كان سائد من دور المجالس فإن غرامشي انتقد عدم قدرة الحزب الاشتراكي على تنظيم الجماهير وظل داخلياً منقسماً على نفسه بين الاصطلاحين والرايكيالين، ومع ذلك فقد حافظ غرامشي في البداية على حياده ووحدة الحزب وفي نفس الوقت أبقي على مكانته الإدارية (عضو اللجنة التنفيذية) وأصبح لا يبالي كثير بصراع الأجنحة في الحزب وصب اهتمامه ووقته في تثقيف العمال وتطوير نضالهم الطبقي وتحضير البروليتاريا لتكون طبقة حاكمة، وفي ماي 1919 أصبح رئيس تحرير مجلة النظام الجديد (بالإيطالية: Ordine Nuovo) التي أصدرها مع صديقه "تولياتي".

كانت الكتابات والأهمية المتزايدة التي منحها غرامشي للمجالس بداية لازمة حادة في الحزب الاشتراكي فمع نهاية 1919 عارض عضو الحزب الاشتراكي وممثل الرايكيالين في الحزب "سيرتي" فكرة دخول كل العمال إلى المجالس بمن فيهم الغير منخرطين في النقابات وحاول غرامشي في صحيفته "النظام الجديد" توضيح شيئين: أولاً: أحقية كل عامل في العضوية بالمجالس، ثانياً: أولوية المجالس (العمال) عن الحزب باعتبارها "أجهزة ثورية".

ومن سؤ الطالع أن "لينين" أثناء هذه الأزمة بعث بالصدفة رسالة مديح "السيراتي" وحذره من خطر الانتهازيين في الحزب، الأمر الذي شجعه على رفض أي تغيير في خطة الحزب، وفي هذه الأثناء وجد غرامشي نفسه في مواجهة صريحة مع الجناحين الأساسيين للحزب، من جهة "كاريزماتية" "سيراتي" داخل الحزب ومن جهة أخرى الغالبية الساحقة للإصلاحيين الذين كان غرامشي ينعتههم بالمشبطين للعمل الثوري، فهو لم يعتقد بولائهم لمبادئ الثورة وحارب فكرهم عن قلة نضج ظروف الثورة في إيطاليا.

دخلت سنة 1920 بموجة من الانتفاضات في كل أوروبا كانت أسبابها في الغالب اقتصادية ولم تكن إيطاليا الاستثناء طبعاً وبالفعل سادة حالة من الفوضى وفي أبريل 1920 حين حدث إضراب عفوي في "تورينو" يعتقد أن سببه الخفي هو صراع حول من يسيطر في المصانع العمال أو أرباب العمل، وعم الإضراب وسانده الحزب الاشتراكي لكن سرعان ما فشل وسيكون لهذا الفشل الأثر الكارثي على كل تاريخ الحركة الاشتراكية في إيطاليا ولقد أرجع غرامشي سبب فشل الإضراب في العزل الذي مارسه الحزب الاشتراكي على العمال فلم يسمح باتساعه خارج "تورينو".

وبسبب ذلك كتب غرامشي مقالا في صحيفته "النظام الجديد" بعنوان: "من اجل تجديد الحزب الاشتراكي" نقد فيه بقوة الراديكاليون "ولام كذلك الإصلاحيين في صفوف الحزب وحملهم عدم كفاءته، لأن القاصوين سمحوا ببقائهم: "لم تفعل الأجهزة المركزية شيئا لمنح الجماهير تثقيفا سياسيا بالمعنى الشيوعي، ولا لدفع الجماهير إلى إزاحة الإصلاحيين والانتهازيين من إدارة النقابات والمؤسسات التعاونية"⁷.

كان المؤتمر الثاني للأمية المنعقد في موسكو سنة 1920 بحضور كل الأطياف الاشتراكية الايطالية قد أصدر إحدى وعشرين شرطا للانتماء إلى الأمية الشيوعية، أظهرت بعض الشروط مساندة "لينين" لتقرير غرامشي الذي اعتبره الاتجاه الصحيح الذي على الحزب الاشتراكي الايطالي أتباعه ورغم ما أثاره هذا التأيد من حقد في نفوس أعضاء الحزب مثل "بورديغا" إلا أن "سيراتي" وعد بإتباع التقرير وتصفية الحزب من الانتهازيين، لكن ولا شيء من هذا حدث، وفي خضم نقد كل الأطياف في الحزب انتقد غرامشي كذلك نفسه عندما رأى انه كان غير طموح لمسك زمام السلطة في الحزب، فتواضعه وعدم اتساع شبكة علاقاته خارج "تورينو" أبقاه هو ومواليه أقلية معزولة في الحزب.

شعر غرامشي بالمرارة من تصرفات الإصلاحيين الذين كانوا يخططون في الحانات أكثر مما يساعدون في مقر الحزب وحتى عملهم في الحزب لم يعدو أن يكون ملاحظة وتزييف حيث أظهر أن التسيير يتم وفق الديمقراطية البرجوازية القائمة وتم التغاضي عن الهدف الحقيقي المتمثل في إعداد البروليتاري للمرحلة الجديدة مما شل القدرة على الثورة، فمادام الحزب لم يعي دوره الطبيعي فلن يتم الاستيلاء على السلطة، مما دفع غرامشي في 18 ديسمبر 1920 للقول: "الحقيقة أن الحزب الاشتراكي لم يكن تجمعاً "حضرياً" بل حشداً قهلياً"، لم يكن جسماً متكاملًا بل تجمع أشخاص"⁸.

في صيف 1920 بدأ غرامشي يشق طريقاً جديدة لعلها توقض الحزب الاشتراكي الذي سئم قاداته ففي أواخر الموسم حدث تقارب متزايد بينه وبين "الفوضيين"^{*} ولم يهتم غرامشي بانتمائهم ماداموا عمليين ويشاطرونه على الأقل الخطوط العامة لما عاد يسمى "النظام الجديد" خاصة مسألة عمل "بجالات المصانع" وقد ساند منظر العنف الثوري "جورج سوريل" هذا التقارب أمام سخط القادة الاشتراكيين، ولكن للأمانة لم يكن غرامشي يتفق مع الفوضويين في الكثير من المسائل خاصة مسألة الدولة.

كانت الفوضوية معروفة بعوائدها الصريح لتصور الدولة فراح غرامشي يشرح تصوره للدولة مستندا إلى نظريتين:

الأولى: تصور "فريدريك هيغل" للدولة.

الثانية: تصور "فلاديمير لينين" الأمية الشيوعية.

يعترف غرامشي بأن الشيوعية طموح أممي تختفي فيه مظاهر القومية والقطرية والدولة، لكن تبقى الدولة خطوة أساسية لا يمكن بأي حال من الأحوال نفيها، يجب التفريق بين دولة محدودة سياسيا واقتصاديا وحتى قوميا ودولة عامة للمجتمع الإنساني وفق ما ترنو إليه الأمية ، فالجتمع يكتسب وعي بذاته عبر الدولة كما يقول

7 المرجع نفسه، ص 42.

8 المرجع نفسه، ص 42.

* الفوضويين: وهي حركة تعود الى "باكونين" مشهورة بدعوتها لنفي الدولة مثلها في ايطاليا كل من: "موريتزيو" "غارينو" "وبييترو فيريو" "كارلو بيترى"

"هيجل" لأنه يجد فيها الصيغة التاريخية المثلى لتقدم الحضارة، ومن بين التنظيمات التي تنتهجها البروليتاريا بعد الثورة هي الدولة الاشتراكية الوطنية على حد تعبير "لينين" والتي ستمهد فيما بعد للتشارك مع دولة اشتراكية أخرى لبلوغ الأممية الشيوعية.

إذا لم يكن غرامشي متفقاً تماماً مع الفوضويين مادام أنه اعتقد بتحول الدولة البرجوازية إلى دولة اشتراكية ففكرتهم عن الحرية المطلقة كانت أقرب ما تكون "إيطوبيا" (Utopie) جافة، ورغم أنه لم يكن يسانداهم في آرائهم فإنه لم يعاديهم ولم يرى فيهم خطراً على الثورة البروليتارية بقدر ما كان يراه في مجموعتين الأولى خارج الحزب الاشتراكي هم: "القوميين" (الفاشيون) الذين سنحت لهم فرصة ضعف الدولة في التجبر لدرجة ممارسة العنف على معارضيتهم السياسيين خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، والمجموعة الثانية هم الإصلاحيين الذين كانوا يخربون الحزب الاشتراكي، ورغم ما تظهر بعض مواقفهم إنها يسارية إلا أنهم في الغالب يقفون مع الطرف الآخر ويؤمنون أن الطريق للوصول إلى السلطة هو الديمقراطية وليس الثورة.

لم تثمر نداءات "لينين" ولا غرامشي في تجديد الحزب الاشتراكي وتطهيره من الانتهازيين ووجد "سيراتي" نفسه بين فكي الكماشة فمن جهة يرفض الدخول في مواجهة مع الإصلاحيين الذين يمثلون الأغلبية في الحزب ومن جهة أخرى يواجه معارضة "الكومنترن" التي جاء مؤتمرها الثاني بتوصية "لينين" للأحزاب الاشتراكية في أوروبا بضرورة طرد الإصلاحيين ووصفهم بالخونة، وأبقى "سيراتي" على الوضع داخل الحزب كما هو، وأراد أن يبرر وجود الإصلاحيين في الحزب على أنه وضع تفرضه خصوصية العمل الثوري في إيطاليا.

هذه الحالة لم يسكت عنها غرامشي الذي بلغ به الغضب من الإصلاحيين لدرجة أنه أصبح أكثر إصراراً من "لينين" على طردهم وحذر "سيراتي" من أنه سيواجه عزلة من طرف البروليتاريا العالمية بعد أن رفض توصيات الأممية الشيوعية التي لم تطالبه إلا بالقليل من الحزم والصرامة والتنظيم المحكم للحزب بغية تحقيق أهدافه المنشودة. ولم يبق غرامشي مكتوف اليدين بل عقد في أكتوبر 1920 مؤتمر بمدينة "ميلانو" مع صفوف الحزب الشيوعي وتم الاتفاق على تأسيس حزب جديد ينقل العمل الثوري في إيطاليا من الحزب الاشتراكي إلى مستوى أعلى هو الحزب الشيوعي الإيطالي كفرع من الأممية الشيوعية العالمية، ثم تم الاتفاق على عدم إشراك الإصلاحيين فيه، وفي سنة 1922 اعترف "سيراتي" بأنه ارتكب خطأ عندما لم يطرد الإصلاحيين من الحزب الاشتراكي.

في سنة 1921 تم بالفعل تأسيس الحزب الشيوعي الإيطالي وكان غرامشي عضواً بارزاً في ذلك، وتوقف الحزب الاشتراكي عن عمله، وبعد عامين من النشاط داخل الأممية الشيوعية (موسكو - فيينا) أصبح غرامشي الأمين العام للحزب الشيوعي الإيطالي، وفي نفس السنة 1922 تزوج في موسكو وفي سنة 1924 ترأس اللجنة التنفيذية للحزب.

وفي الثامن من نوفمبر سنة 1926 يتم إلقاء القبض على غرامشي من طرف الشرطة الفاشية بناءً على أمر من "موسوليني" وفي سنة 1928 يحكم عليه من طرف محكمة فاشية خاصة بعقوبة السجن لمدة عشرين سنة نافذة حيث أمضى العشر سنوات الأخيرة من عمره تحت التعذيب، وفي السجن حرر غرامشي "رسائل من السجن"، بداية من 1929 أعلن قطيعته مع "ستالين" بسبب الاتجاه السياسي للأممية وتحويل الماركسية ديانة رسمية للدولة التوتاليتارية قبل أن يموت في مستشفى سجن روما في 27 أبريل 1937.

عندما يتحدث غرامشي عن المعرفة فهو يفرق بين ثلاثة مستويات هي: 01- الفلسفة، 02- الدين، 03- الحس المشترك والفلكلور، ويرى أن "الفلسفة نظام فكري أما الدين والحس المشترك فلا يمكن أن يكونا كذلك. ويلاحظ أيضا أنهما لا يتطابقان"⁹، غرامشي يجعل الحس المشترك عنوانا للفكر العامي المكون من خليط كثيف من الأفكار والشوائب التاريخية الغير مرتبه بمقابل الفلسفة التي تعتبر "حس سليم"، أعلى قيمة وأكثر تعقيدا، ومع ذلك فغرامشي يربط الفلسفة بسياقاتها التاريخية التي نشأة فيها الفيلسوف ما هو إلا تعبيراً عن عصره ومنه "إن التاريخ والفلسفة بهذا المعنى شيء واحد، لا ينفصلان: إنهما يكونان سبيكة واحدة"¹⁰، بل يذهب إلى درجة ربط قيمة هذه الفلسفة بتاريخها، "ويمكن القول أن القيمة التاريخية لأية فلسفة تقدر بما اكتسبته من فاعلية عملية" بأوسع معاني الكلمة. وإذا صح أن أية فلسفة هي تعبير عن مجتمع ما، فلا بد أن تعود لتؤثر في هذا المجتمع تأثيراً إيجابياً وسلبياً معاً. ومدى تأثيرها هو بالتحديد مقياس أهميتها التاريخية، والدليل على أنها ليست مجرد "جهد فردي لا طائل من ورائه"، بل "حقيقة تاريخية".¹¹

لقد لعب الدين لفترة طويلة دور الإيديولوجيا الموحدة للحياة الجماعية ومحافظاً على تماسك الحياة الفردية فالكنيسة الكاثوليكية مثلاً لا تزال توحد الكتلة الاجتماعية للمؤمنين بل حتى أنها منعت ظهور دين للنخبة وآخر للعامة وأبقت على رؤية للعالم موحدة يتشارك فيها أعلى الهرم مع أسفله وظل هناك دين رسمي واحد، ووجب على الفلسفة أن تنحى هذا المنحى الذي لا تنفصل فيه القاعدة عن القمة، وان تجعل من نفسها خادمة للحياة الاجتماعية بتخلصها من طابعها الفردي الخالص.

ولا يعني هذا أن تتحول الفلسفة إلى "حس مشترك" بل عليها أعمال معول النقد فيه لترجعه حساً سليماً، ذلك إن تاريخ الفلسفة حمل على الدوام مهمة النقد وينبع النقد من القدرة على التفكير بطرق مختلفة ومن منطق وجود احتمالات متعددة ومن الخيال المتجاوز للواقع ومن النظر للأمور بطريقة مغايرة، كما أن وعي الإنسان الذاتي وصراعه من أجل إثبات الذات يعتبر جزءاً من العملية.

عبر النقد الذاتي تطمح الفلسفة لإخراج الجماهير من سلبية "الحس المشترك" وترشداهم إلى رؤية أرقى للحياة، فالانتقال من الطور الأول أين تكون الجماهير النشطة اقتصادياً تحت رحمة الهيمنة والقيادة الرجعية إلى الطور الثاني أين تبدع النخب وتحدد لها رؤية مستقبلية للنشاط الإنساني تبقى قضية تكوين النخب عملية شاقة وطويلة مليئة بالتعارضات والتقدم والتقهقر، وعندما تتشكل هذه النخب فإنها تتميز عن عامة الناس بحسها النقدي وهي بذلك ترقى عن المعتقدات المتحجرة للعامة وتتميز بمستواها الفكري الذي يدفع العامة لإتباعها.

وعلى الحركة الثقافية للنخب أن تتمسك ببعض الشروط لتحقيق الريادية والإتباع وهي:

- 1- التعليم المتكرر للعقلية الشعبية.
- 2- الارتقاء بالمستوى الفكري للجماهير.

9 انطونيو غرامشي، كراسات السجن، www.nj180degree.com ، ص 06.

10 المصدر نفسه، ص 24.

11 المصدر نفسه، ص 24.

لقد تصور غرامشي الفلسفة كإمكانية متاحة لكل الناس وليست تأملا ميتافيزيقيا فح فطالبها بالانخراط في اليومي وتعقيداته وهو بذلك ينحو منحى الطرح الماركسي الذي رأى النشاط الفلسفي تفكيراً نقدياً مرتبطاً بالواقع له الصلة الوثيقة بالممارسة السياسية فيحرك الوعي العمالي نحو الثورة .

لقد أشار غرامشي في الكثير من محطات فكره بأهمية ربط أواصل التعاون بين الفلسفة والممارسة، الفكرة التي يستشهد فيها غرامشي "بماركس" كثيراً وليبرهن على حقيقة ارتباط الوعي بالبراكسيس ينطلق غرامشي من بديهية يؤمن بها هي أن الفلسفة معطى ممكن لكل إنسان وليست كما يظن الكثيرون أنها معرفة معقدة مميزة لفئة معينة من النخب.

يعتقد غرامشي أن الفلسفة تفكير عفوي موجود عند كل الناس مادام أن كل إنسان له رؤيا للكون والحياة فإنه يلج الفلسفة من ماهيتها الأولى ، كما أنها محمولة في ثلاثة عناصر:

- 1- الحس المشترك.
 - 2- اللغة.
 - 3- التفكير العامي (الفلكلور) المعتقدات والخرافات.
- لكن غرامشي يعتبر وجود الأرضية الفلسفية عند العامة فاتحة إلى خطوة تحضيرية ثانية هي "الوعي النقدي".
- ب- الإيديولوجيا:**

تعتبر الإيديولوجيا أحد أهم المفاهيم التي اعتنت بها الماركسية من ناحية مضمونها وشكلها وآليات اشتغالها من منطلق العلاقة بين القاعدة المادية والاقتصادية لحياة الناس وتأثيرها على وعيهم (البنية الفوقية : القانون السياسية¹²) وينظر غرامشي للإيديولوجيا كونها معتقد أو إيمان بل حتى دينا بغض النظر عن أصله وتتجلى الإيديولوجيا في تصورها للوجود والأشكال الثقافية الأدبية الأخلاقية والقانونية... الخ، وهي ممارسات تحكم سلوك الفرد والجماعة.

إن الإيديولوجيا حقلا متماسكاً تماسكا منطقيا كونه تعبير عن وظيفة اجتماعية ومع ذلك فله مستوياته "يحدد غرامشي حقل الإيديولوجيا في شكل هرمية منطقية تتألف من أربع درجات أو طوابق هي التجسيدات والأشكال الملموسة التي تتجلى فيها الإيديولوجيا"¹³ ، ويمكن ترتيبها على النحو الآتي:

01- الحس المشترك والفلكلور: سنجمع هذان المستويان لتشابههما واقتراحهما من بعضهما البعض اهتم غرامشي بالتفكير العامي للشرائح الأقل ثقافة في المجتمع وفهم وعيهم الحسي البسيط الذي يكاد يخلو من كل نقد وعمق تفكير ومع ذلك تعبر الجماهير عن نفسها بداخله رغم هشاشته ووقوفه على التجربة اليومية واقتربه من الاعتقاد والأيمان كالدين.

يعتبر الفلكلور أكثر تصلبا وتحجرا من الحس المشترك المرن كما انه أكثر تشويشا وعدم تماسك عكس هذا الأخير الذي رغم تلهله فإنه أكثر انسجاما ومنه فيبقى في القاع كترسبات في أسفل الحياة الثقافية الاجتماعية فهي لا ترتفع لتشكّل تصورا موحدا للعالم ولا تعدو أن تكون شذرات متناثرة لما تبقى من التحولات التاريخية.

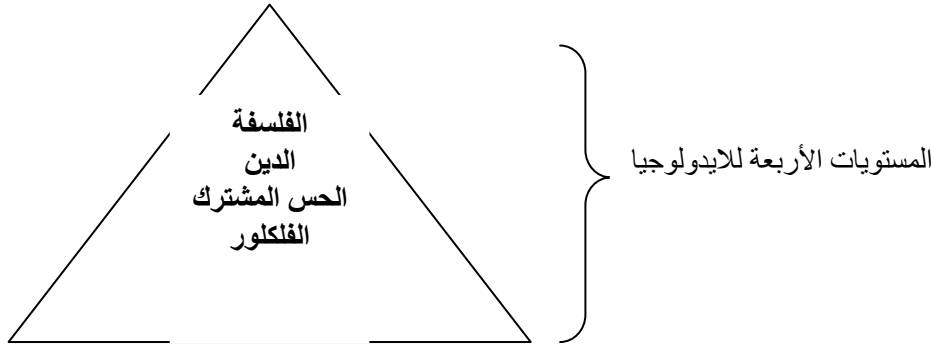
¹² Marx, introduction a la critique de l'economi politique PSF Paris 1966, pp 4,5

¹³ عمار بلحسن ، الأدب والإيديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 21.

02- الدين: لقد هيمن الدين لزمان طويل على البشرية وما يزال ، وله قدرة كبيرة على تحريك الجماهير والتأثير على وعيها الأمر الذي دفع غرامشي إلى الاهتمام به من حيث ماهيتها (كرؤيا للعالم) وتطبيقاته (الطقوس والشعائر الممارسات والسلوكيات) ومن بين الديانات الكبرى في العالم ركز غرامشي اهتمامه على المسيحية الكاثوليكية مجسدة في مؤسستها الشهيرة "الكنيسة الكاثوليكية في روما" وعبر تراتبيتها الهرمية وتنظيمها الرمزي والبيروقراطية (الكليروس أو رجال الدين)، ولاحظ غرامشي مدى سطوة الفاتيكان على وعي الايطاليين مستعينا بالصحف والأحزاب المسيحية والإعلام.

03- الفلسفة: يقول ماركس "إن الفلاسفة لا يظهرون من العدم بل هم نتاج مجتمعاتهم وعصرهم بل هم الثمرة الأعلى لواقعهم"، واعتبرهم غرامشي الوعي التاريخي لطبقة اجتماعية تعبر عن ذاتها في نسقا صارم ومنظم وهو بذلك يرفعها من مجرد تفكير فردي محدد إلى ظاهرة جماعية لكنه في نفس الوقت يستبعد نوعا من الفلسفة المستقلة التي لا تهتم بالتاريخ والواقع الاجتماعي وتكتفي بالتفكير الموهل في الفردانية والغموض.

إن ما يقصده غرامشي بالفلسفة هو "فلسفة البراكسيس" * Praxis الفلسفة المنخرطة في الصراعات الاجتماعية الفلسفة الايجابية التي تؤثر في المجتمع وتغير تاريخه.



هناك علاقة قوية بين الإيديولوجيا والصراع الطبقي فالممارسات السياسية لكل طبقة اجتماعية تحركها الإيديولوجيا تحفزها وتحدد غايتها وبما أن الفلسفة احد مستويات الإيديولوجيا فإنها بالتالي متورطة تاريخيا في السياق العام للصراع السياسي وتبقى حلقة الوصل والانتقال من علاقات الإنتاج (المستوى الاقتصادي) إلى الوعي الايديولوجي (المستوى السياسي) وهي هنا لا تحمل دلالة سلبية كما حملها إياها ماركس بل تصبح إيديولوجيا ايجابية مادامت يتحرك بداخلها الناس ويشحذون فيها وعيهم ويكتسبون عبرها وعيهم بذاتهم ولا تتوقف عند هذه الوظيفة السيكلوجية بل تتعداها إلى وظيفة تنظيمهم وتشكيلهم موضوعيا أي أنها تغدو من كونها معتقدا لتصبح "قوة مادية"، وتنظيما سوسيولوجيا.

إن الإيديولوجيا تقوم بدور حاسم في تعبئة الناس ثم حشو وعيهم إلى تنظيمهم وتحريكهم، ويشبه غرامشي هذه العملية بوظيفة البنائين في التخطيط بناء الهيكل ثم إنجاءه ولقد رأى في الفاتيكان بروما مثالا واضحا لقوة الإيديولوجيا على تشكيل ممارسات المؤمنين، أنها تجعلهم كتلة واحدة ولحمة يتكاتف فيها العناصر ويتماسكون لغاية محددة لقد أعجب غرامشي كثيرا بدقة النظام الكنسي وما يقوم عليه من ممتلكات مادية ومؤسسات إدارية وقدرة متجددة على الإنتاج الرمزي بطبع الكتب الدينية والسهر على توزيعها.

* البراكسيس: مفهوم ماركسي يقصد به تطابق النظرية والممارسة.

تقابل الأدبيات السياسية دوماً مجتمعين داخل الدولة الأول يسمى: المجتمع المدني* والثاني المجتمع السياسي وداخل هذه البنية تسعى الطبقة المسيطرة دوماً للإبقاء الوضع على ما هو عليه وانتزاع الشرعية من الجميع على أحقية البناء الاجتماعي القائم وتستعين في ذلك بـ :

- 1- المؤسسات الدينية.
- 2- المؤسسات التربوية العلمية (المدارس، الجامعات...الخ).
- 3- المؤسسات الإعلامية (الراديو، الصحف..الخ).

❖ أما المجتمع السياسي فتجسده الدولة:

- 1- الجهاز العسكري.
- 2- جهاز الشرطة.
- 3- مؤسسات الدولة القانونية.

ج - المثقف التقليدي والمثقف العضوي

إن هذه الدراسة الغرامشية للايديولوجيا تدفعنا مباشرة وبشكل حتمي إلى إشكالية أخرى عمق البحث والتفكير فيها إنها قضية المثقفين ولقد أعاد التفكير فيها مبدداً الأحكام المسبقة التي ارتبطت به طويلاً من حيث تفرد والتمايز الشديد عن المجتمع ، بل اعتقد غرامشي أن هناك علاقة ضرورية موضوعية تربط المثقفين بطبقاتهم كونهم الإفراز الأعلى شئنا لما فهم يرتبطون عضويًا بها فإذا كان عمالها يقدمون مجهوداً عضلياً فإن النخبة تقدم مجهوداً ذهنياً.

يستعمل غرامشي مفهوم "المثقف العضوي" والعضوية هنا تعني الانتماء البيولوجي الأسري الذي على المثقف أن ينشدها وينشد عبرها إصلاح "الحس المشترك" عند عامة الناس فكون المثقف مزوداً بالوعي النقدي لزم عليه القيام بالدور الطليعي الذي تفرضه عليه الظروف التاريخية من هذا المنطلق يميز غرامشي بين المثقف التقليدي والمثقف العضوي فماذا يعني بهذا التمييز ؟

يربط غرامشي المثقف التقليدي بالطبقة الرجعية التي ينتمي لها (برجوازية صغيرة) والتي تنحدر إلى الأفل وتقف عقبة أمام كل تغيير وهذا يعني أن على المثقف العضوي أن يعبر بصدق عن طبقته ويقاوم تسلط المجتمع السياسي فعند مستوى الصراع الثقافي يجهد المثقف لعضوي نفسه من أجل الوعي بالذات Auto Conscience والنقد الذاتي Auto critique لينتصر على الرجعية الخادمة للطبقة المهيمنة.

يرتبط المثقف إيديولوجياً واجتماعياً بطبقته فهو يمثلها ويعبر عن آمالها وطموحاتها في كل الميادين العلمية والأدبية والفنية، فهو عبر هذه القنوات يؤثر في وعيهم ونظرتهم للعالم، وهم مخولين لمثل تلك المهام بسبب حسهم السليم

استعمل غرامشي مفهوم "الهيمنة الثقافية" وكان يعني به الهيمنة الثقافية للطبقة البرجوازية الحاكمة بنشر أفكارها وتصوراتها عن الحياة وهي بذلك تفرض وعياً زائفاً على غيرها مما يمكنها من السيطرة والدوام أطول مدة،

* يعتبر غرامشي أن استعمال مفهوم المجتمع المدني عند هيجل يعني هيمنة فئة معينة على المجتمع كله أما في التصور المسيحي فالمجتمع المدني يقابل مجتمع الكنيسة إلا أن غرامشي يدرج المجتمع المدني والسياسي ضمن البنية الفوقية.

لذلك على "المتقف العضوي" فضح هذه الممارسات وتبيان زيفها، ويعني ذلك مقاومة وإعلاء من وعي طبقته المسحوقة ليس اقتصاديا فقط وإنما كذلك ثقافيا.